مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (6)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (6) 2018

الصراع الفاطمي- البيزنطي على ساحل بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين (358-447هـ/ 969-1055م)

د. سامي مرعي*
د. غادة حسن*
أحمد منير علي*

(تاريخ الإيداع 6 / 8 / 2018. قبل للنشر في 6 / 12 / 2018)

□ ملخّص □

كانت بلاد الشام وعبر التاريخ معبراً إلى الديار المصرية، فمنها مر الغزاة والفاتحون على السواء، لذا حرصت جميع السلطات والدول التي تعاقبت على الحكم في مصر، كل الحرص على مد سلطانها ونفوذها إلى الديار الشامية، ومنهم الفاطميون فما كادوا يسيطرون على مصر، حتى بدأت حملاتهم إلى الشام بغرض التوسع فيها وضمان أمنهم واستقرارهم، وهذا الأمر لم يشمل أنحائها الداخلية فحسب بل الشريط الساحلي الذي يضم العديد من المدن المهمة أمثال صور وصيدا وطرابلس واللاذقية وأنطاكية، وقد أدى التوسع في بلاد الشام وفرض السيطرة على ساحله إلى الاصطدام مع البيزنطيين أصحاب النفوذ والسلطان الواسعان في الديار الشامية وشريطها الساحلي، فكلاهما كان يرى في الساحل الشامي بحواضره محطات أمان تضمن لهم الغزو من جديد فيما لو تعرض نفوذهم الداخلي لأية قلقلة أو تحجيم، الأمر الذي حتّم عليهما الصدام العسكري، وكان الساحل الشامي مسرحاً له في الكثير من الأحيان، كما أن نفوذ الطرفين على ذلك الساحل كان بين مدٍّ وجزر، وخاضعاً لاعتبارات كثيرة منها الوضع الداخلي ومدى الاستقرار الذي تتمتع به كل دولة منهما.

الكلمات المفتاحية: الساحل الشامي- البيزنطيون- الفاطميون.

* أستاذ مساعد في قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
* أستاذة مساعدة في قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
* طالب دكتوراه في قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية –جامعة تشرين – اللاذقية –سورية/ Ahmad.M_Ali@yahoo.com

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (6)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (6) 2018

The coast of the Levant, Byzantine- Fatimid conflict during the fourth and fifth centuries AH/ tenth eleventh centuries AD (358-447هـ/ 969-1055م)

DR. Sami Muray*
DR. Ghada Hasan*
Ahmad Moneer Ali*

(Received 6 / 8 / 2018. Accepted 6 / 12 / 2018)

□ ABSTRACT □

Levant was always expressive of travelling to Egypt, through it over invaders and conquerors alike, so we find when all authorities and successive States in Egypt taken to extend their power and influence to the Levantine homes, whom the Fatimids, After Fatimids control Egypt, even started their campaigns to Levant to expand and ensure their security and stability, and that it did not cover over Levant interior but coastline featuring many important metropolises, Such as the cities of Sidon, Tripoli and Latakia and other vulnerable coastal centers, And that desire to expand into the Levant and it's coast had her collision with the Byzantines and their wide influence at Levant and the Levantine coastline, Both of them had felt in the security stations its observers Levant coast guaranteed invasion again as if the internal influence any destabilization or scaling, Which they necessitated the military clash in a lot of times, As the influence of the parties on that coast was between highs and lows, and subject to many considerations including domestic situation and stability enjoyed by each other.

Key words: Levant Coast- Byzantine- Fatimids.

* **Assistant professor in history department at Faculty of Arts- Tishreen University- Latakia- Syria.**
* **Assistant professor in history department at Faculty of Arts- Tishreen University- Latakia- Syria.**
* **Postgraduate Student (PH)- Faculty of Arts- Tishreen University- Latakia- Syria/ Ahmad.M_Ali@yahoo.com.**

مقدمة:

يشكل ساحل بلاد الشام، الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط (بحر الروم)، وهو عبارة عن شريط ساحلي ممتد من إسكندرونة شمالاً حتى غزة جنوباً، مروراً بالسويدية واللاذقية وجبلة وبانياس وأنطرسوس(طرطوس) وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة[1]، وكان ومازال له دور بارز في عملية الاتصال الحضاري بين مناطق العالم المختلفة، إذ كان موضع تأثر وتأثير في جميع مناطق الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقية وجنوب القارة الأوروبية[2]، كما كان مركزاً للعديد من المدنيات منذ سالف الأزمان، كنعانية وفينيقية ومصرية وفارسية ويونانية ورومانية وعربية[3].

أهمية البحث وأهدافه:

أهمية البحث:

إن الأهمية التي يتمتع بها الساحل الشامي جعلته دوماً محطاً لأنظار القوى الكبرى في الماضي والحاضر على السواء، فموقعه الاستراتيجي الهام والمتوسط لحضارات العالم، جعله مسرحاً للتنافس والصراع بغرض السيطرة عليه، وخاصة فترة هذا البحث التي شهدت انحساراً للنفوذ العربي الإسلامي وظهوراً وبروزاً للنفوذ البيزنطي، وهو أمر لم يعرف منذ الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام، فالقوات البيزنطية كانت قد تقدمت وبسطت نفوذها على مساحات واسعة من بلاد الشام بما فيها جزء كبير من الساحل، مستغلين حالة التخبط وعدم الاستقرار السائدة في العالم العربي الإسلامي آنذاك، كما كان مقصد ومنطلق أقصر الطرق البحرية بين الشام ومصر، الشام وقبرص، الشام وبيزنطة وبالعكس، لذلك كان الفاطميون في مصر حريصين كل الحرص على ضمان استقرار سلطانهم على هذا الساحل، ويعود اختيار هذا البحث نظراً لأن معظم الأبحاث التي تناولت الساحل الشامي، تحدثت عنه في إطار الخطوط العريضة وعلى هامش البحث في تاريخ بلاد الشام بشكل عام أو الديار المصرية زمن الفاطميين، أو في إطار البحث في تاريخ الدولة البيزنطية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى التعرف على أحوال الساحل الشامي في مرحلة مهمة من مراحل تاريخه العربي الإسلامي، كان الصراع عليه بين إحدى القوى العربية الإسلامية وهم الفاطميون من جهة والروم البيزنطيون من جهة أخرى، فكان ساحة للصراع بين هاتين القوتين المتخاصمتين، وكذلك التعرف على الجهود التي بذلها كل طرف لضمان سيادته ونفوذه على المناطق الساحلية التي يسيطر عليها، وكذلك التعرف على الدور الذي شغله الساحل الشامي في ضمان استقرار سلطة الفاطميين من جهة والبيزنطيين من جهة ثانية، على مناطق نفوذهم في النواحي الداخلية لبلاد الشام إلى حين ظهور التركمان السلاجقة على الساحة السياسية للمنطقة.

---

[1] **ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت، 367هـ/ 977م)، صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة، 1992، ص 153-155.**

[2] **Doweny, G Lanvill, Gazian The early sixth Century, Oklahoma, press 1963, p6.**

[3] **ماسبيرو، غاستون، تاريخ المشرق، تر: أحمد زكي، القاهرة، مؤسسة هنداوي، 2012م، ص 140.**

منهجية البحث:

يعتمد البحث على جمع المادة العلمية التي تخص البحث والمتواجدة في المصادر والمراجع المتعلقة بتاريخ الديار الشامية والمصرية بشكل عام، والساحل الشامي بشكل خاص، ودراستها وتحليلها والمقارنة بينها ومن ثم إخراجها بطريقة تفيد إيضاح الوضع السياسي للساحل الشامي بتلك المرحلة من تاريخه، وحالة الصراع التي كانت قائمة عليه بين الفاطميين والبيزنطيين.

المناقشة:

1-لمحة سياسية عن تاريخ الساحل الشامي حتى منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر للميلاد:

بعد أن نجح العرب المسلمون في السيطرة على الساحل الشامي كجزء من حركة فتوحاتهم في الديار الشامية، أثار ذلك حفيظة الروم البيزنطيين ودفعهم إلى مهاجمة ذلك الساحل عدة مرات رغبة في استعادة السيطرة عليه، ما جعل العرب المسلمين يدركون مدى ضرورة تحصينه وشحنه لصد الغزاة القادمين عبر البحر إليهم، وأول من أدرك ذلك كان حاكم الشام معاوية بن أبي سفيان الذي بذل الكثير من الجهد بهدف تحصين ذلك الساحل[1]، واستمر الاهتمام بأمر الساحل الشامي على مدى العصر الأموي حتى نهايته[2]، ومن الناحية الإدارية، فقد كان الساحل الشامي مقسماً إلى العديد من الوحدات الإدارية التي تتبع التقسيمات الإدارية الرئيسة لبلاد الشام عموماً، فالمعروف أن الأمويين كانوا قد جعلوا من بلاد الشام خمسة أجناد[3]، أو وحدات إدارية، كل منها مؤلفة من قسمين شرقي أو داخلي، وغربي أو ساحلي، فمدن جند فلسطين يتبع له من الساحل، غزة وعسقلان ويافا وقيسارية، وجند الأردن يتبع له عكا وصور، وجند دمشق يتبع له، صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس، وجند حمص يتبع له أنطرسوس وبانياس وجبلة واللاذقية، وجند قنسرين الذي كان يمتد إلى الساحل وتتبع له أنطاكية وسلوقية وحصن بوقا[4]، ومن ثم منطقة الثغور والعواصم التي تتبع لها المناطق الواقعة إلى الشمال من أنطاكية مروراً بإسكندرونة وصولاً إلى طرسوس[5]، وبعد انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، لم يُهمَل الساحل الشامي، بل ظل في دائرة اهتمام خلفاء بغداد من بني العباس وخصوصاً خلفاء العصر العباسي الأول(132– 232هـ/ 749– 847م)، فقد كانوا حريصين وبشكل دائم على دوام عمارة تلك النواحي وحصانتها[6]، ولكن مع دخول الدولة العباسية في دورها الثاني(232– 334هـ/ 847– 945م) وهو دور الضعف، تراجع اهتمام بغداد بالساحل الشامي، لصالح اهتمام القوى الإقليمية التابعة لها به، وخاصة الطولونيين ومن ثم الإخشيديين والحمدانيين، فكان هناك حالة من التقاسم الحمداني الإخشيدي للسيادة والنفوذ على بلاد الشام بما فيها الساحل، استمر حتى أواخر العقد السادس من القرن الرابع الهجري حين انقلبت الأحوال السياسية في بلاد الشام،

---

[1] البلاذري، أحمد بن يحيى (ت، 279هـ/ 892م)، فتوح البلدان، تح: عبد الله الطباع–عمر الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، 1407هـ/ 1987م، ص 201، 219، 221، 207–215؛ حمود، سوزي، لبنان في العصر الوسيط، بيروت، دار النهضة، ط2، 1431هـ/ 2010م، ص 16، 20–22؛ شبارو، عصام محمد، تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، بيروت، دار مصباح الفكر، 1987م، ص 39–46.

[2] البلاذري، فتوح، ص194–195، 226؛ سالم، عبد العزيز، دراسة في تاريخ مدينة صيدا، بيروت، جامعة بيروت العربية، 1970م، ص 64.

[3] البلاذري، فتوح، ص 180.

[4] بوقا: من قرى أنطاكية ولها حصن مشهور باسمها؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت، 626هـ/ 1229م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ط2، 1995م، ج1، ص 510.

[5] ابن حوقل، صورة الأرض، ص 157–169.

[6] البلاذري، فتوح، ص 196، 221، 223؛ شبارو، تاريخ بيروت، ص 53.

وصار يتقاسم النفوذ والسلطان فيها بما في ذلك المنطقة الساحلية قوتان جديدتان، هما: الفاطميون في الجنوب[1]، والروم البيزنطيون في الشمال[2].

2-الصراع الفاطمي البيزنطي على الساحل الشامي:

أ-الصراع الفاطمي البيزنطي في عهد المعز(358- 365هـ/ 969- 976م)[3]: كان ذلك التوسع الفاطمي قد جوبه بحركة مقاومة، قادها زعيم القرامطة في بلاد الشام الحسن الأعصم[4]، فضم تحت لوائه جميع القوى المناهضة للفاطميين، واستغل انشغال جزء كبير من القوات الفاطمية في بلاد الشام بمحاولة السيطرة على أنطاكية بقيادة فتوح غلام جعفر بن فلاح[5]، فهاجم الفاطميين بالقرب من دمشق360هـ/ 971م، وانتصر عليهم، الأمر الذي نتج نتج عنه انحسار للنفوذ الفاطمي واقتصاره على الساحل فقط،[6] ذلك بفضل والي الغرب تميم التنوخي[7] الذي جعل نفسه نفسه على الحياد في ذلك الصراع وحافظ على ولائه للفاطميين، فقد انسحبت القوات الفاطمية بعد مصرع جعفر بن فلاح إلى يافا بفلسطين، وانضموا إلى وحدات الأسطول الفاطمي فيها، ومن هنا يمكن إدراك مدى أهمية الساحل في استمرار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، فمعظم القوى الخارجة على الفاطميين في بلاد الشام، كانت حركات عسكرية لا علم لها بالبحر وركوبه ولا تملك قوات بحرية، وهذا ما مكن الفاطميين من المحافظة على تفوقهم وضمان سيطرتهم على المدن الساحلية فسلطتهم فيها كانت أكثر استقرارا من سائر نواحي الشام الأخرى، وخاصة بلاد الشام الداخلية، فقد كانت سلطتهم فيها بين مد وجزر على الدوام، وكان هذا الساحل قواعد متقدمة للفاطميين في بلاد الشام يسّرت إدارة الفاطميين لها، ومكنتهم من الوصول السريع لأي طارئ قد يستجد، هذا الأمر دفعهم للحرص الدائم على استقرار ذلك الساحل وضمان سلطتهم عليه، ففي سنة 364هـ/ 975م عمل المعز على إعادة السيطرة على ذلك الساحل وضمان

---

[1] للمزيد عن تاريخ الفاطميين والدولة الفاطمية يمكن الرجوع إلى: جمال سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، دار الفكر العربي، 1995م؛ حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1932م.

[2] للمزيد عن تاريخ البيزنطيين وإمبراطوريتهم يمكن الرجوع إلى: العريني، السيّد الباز، *الدولة البيزنطية*، بيروت، دار النهضة، 1385هـ/ 1965م؛ عبد القادر اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، المكتبة العصرية، 1984م.

[3] المعز لدين الله الفاطمي: معد بن إسماعيل بن عبيد الله، أبو تميم، ولد في المحمدية (من بلدان المغرب) سنة 319هـ/ 931م وتقلد الحكم سنة 341هـ/ 952م وتوفي سنة 365هـ/ 976م؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 93؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت، 597هـ/ 1201م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد ومصطفى عبد القادر عطا-نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1412هـ/ 1992م، ج14، ص 245.

[4] الحسن الأعصم القرمطي (278-366هـ/ 891-976م): الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي، فارسي الأصل ومن أمراء أمراء القرامطة، ولد في منطقة الأحساء، استولى على دمشق سنة 357هـ/ 968م وزحف يريد مصر سنة 361هـ/ 972م، وتوفي في الرملة في فلسطين، وكان يظهر الطاعة للخليفة المطيع العباسي؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص 179.

[5] الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت، 458هـ/ 1067م)، *تاريخ الأنطاكي (صلة تاريخ أوتيخا)*، تح: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس-لبنان، جروس برس، 1990م، ص 145-146.

[6] سالم، عبد العزيز، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1966م، ص 49.

[7] هو الأمير عز الدولة تميم التنوخي، أحد الأمراء الأرسلانيين البارزين خلال تلك الفترة، ولم يكن الوحيد الذي ظهر من آل أرسلان، وإنما برز العديد من أمراء تلك العائلة، ولعلها في تلك الفترة كانت عائلة ذات ثقل محلي جعل السلطات الفاطمية مهتمة بكسب ولائها، أما ولاية الغرب فالمقصود بها اتجاه الغرب من دمشق، فالمعروف أن دمشق كانت مركز الإدارة لأي قوة مسيطرة على بلاد الشام، وأن يقوم أحد ولاتها بتعيين حاكم على بلاد الغرب فالمقصود هنا ساحل بلاد الشام التابع لدمشق وخاصة طرابلس، بيروت، جبيل؛ الشدياق، الأعيان، ج2، ص 288؛ سالم، تاريخ صيدا، 76؛ سالم، طرابلس الشام، ص 49.

استقراره وتبعيته له، فكلّف غلامه ريان الخادم[1]، بالتوجه إلى طرابلس والسيطرة عليها بعد أن فسدت أحوالها ودخلت في مهادنة الروم البيزنطيين بقيادة عاملها المدعو ابن الزيات[2]، وما أن تم له ذلك حتى كلّفه بالذهاب إلى دمشق وإقرار أوضاعها وتولي أمورها من مقدم الجيش الفاطمي فيها أبو محمود إبراهيم الذي نُقِل إلى طرابلس وجعل تحت تصرف نصر الصقلبي الخادم والي طرابلس الجديد[3]، كما أرسل غلامه نصير الخادم على رأس قوة أخرى سيطر من خلالها على بيروت[4]، الأمر الذي أثار حنق الإمبراطور البيزنطي يوحنا زمسكيس(ابن الشمشقيق) الذي كان يطمح للسيطرة على القدس وانتزاعها من يد المسلمين[5]، فبعد الانتصارات التي تحققت لصالحهم في عهد نقفور فوكاس وسيطرتهم على على الجزء الشمالي من الساحل الشامي، ظل القسم الجنوبي منه يراود مخيلتهم لأنه يحقق لهم الوصول إلى بيت المقدس(مهد المسيح) قبلة المسيحيين، فانطلق الإمبراطور يوحنا زمسكيس من القسطنطينية منتصف عام 364هـ/ 975م، مستغلاً متاعب الفاطميين في بلاد الشام وجهودهم الدائمة لإقرار أمورها، وتوجه جنوباً فدخل بلاد الشام بمحاذاة نهر العاصي حتى وصل حمص فدخلها دون قتال وتوجه منها إلى بعلبك، ومنها إلى دمشق، حيث هادنه أفتكين التركي[6] المتغلب عليها، ومنها توجه نحو الساحل[7]، حيث خرج إليه أبو الفتح بن الشيخ أحد مقدمي صيدا وأكابرها ومعه وجوه البلد محملين بالهدايا وطالبين الأمان على مال يدفع له، فوافق على ذلك[8]، ومنها توجه شمالاً بعد أن أوقف زحفه نحو القدس، وذلك ليخضع باقي مدن الساحل ويؤمن مؤخرة جيشه فوصل بيروت التي كان فيها قوات فاطمية بقيادة نصير الصقلبي الخادم، نجم عنها هزيمة الحامية الفاطمية ووقوع نصير في أسر زمسكيس، ثم قصد جبيل فسيطر عليها ومنها توجه إلى طرابلس التي عاد إليها ريان الخادم كأمير بعد طرده من دمشق على يد قائد القوات التركية فيها أفتكين التركي معلناً خروج دمشق من دائرة النفوذ الفاطمي[9]، وفي طريقه إليها اصطدم مع قوة فاطمية تابعة لحامية طرابلس كانت تقوم بمهمة استطلاعية فهزمها ووصل طرابلس التي استعصت عليه بقيادة ريان

---

[1] عُيّن ريان الخادم والياً على طرابلس سنة 364هـ/ 975م، من قبل المعز الفاطمي، لتصير طرابلس منذ ذلك الحين ولاية قائمة بذاتها ولم تعد تتبع دمشق، كما صارت منفصلة إدارياً عن ولاية الغرب بدليل بقاء عز الدولة تميم التنوخي على ولايتها وحاضرتها بيروت؛ سالم، طرابلس الشام، ص 49.

[2] لعل ابن الزيات هذا، هو نفسه أحمد بن الحسين الزيات، الذي كان آخر من تولى أمرة طرسوس من قبل المسلمين قبل سقوطها بيد البيزنطيين سنة 354هـ/ 965م، فقد كان قد قصد مصر بعد سقوط طرسوس ودخل في خدمة حكامها الفاطميين، لذا يرجح أنهم استعملوه وولوه طرابلس لخبرته الطويلة في الصراع مع البيزنطيين؛ ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، 660هـ/ 1262م)، بغية الطلب من تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، 1988م، ص 698، 1490.

[3] ابن القلانسي، حمزة بن أسد(ت، 555هـ/ 1160م)، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، 1908م، ص10؛ ابن الأثير، علي بن محمد(ت، 630هـ/ 1232م)، الكامل في التاريخ، تح: محمد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1407هـ/ 1987م، ج7، ص 355؛ ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبدالله(ت، بعد 736هـ/ 1336م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تح: صلاح الدين المنجد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، 1380هـ/ 1961م ج6(الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية)، ص 169؛ طقوش، محمد سهيل، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، بيروت، دار النفائس، ط2، 1428هـ/ 2007م، ص 227؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 553.

[4] النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 93.

[5] اليوسف، عبد القادر أحمد، الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، المكتبة العصرية، 1984م، ص 134.

[6] هو أبو منصور التركي المعزي (ت، 368هـ/ 979م)، كان غلام لمعز الدولة أحمد بن بويه، غادر العراق بعد انهزامه في إحدى المعارك بين الأتراك والديلم، فقصد دمشق مستغلاً فراغها من الجنود الفاطميين المنشغلين بالبيزنطيين المهاجمين لطرابلس؛ سالم، تاريخ صيدا، ص 70، هامش 3.

[7] ذكر الباز العريني في كتابه الإمبراطورية البيزنطية، أن الإمبراطور زمسكيس أرسل رسالة إلى آشوت الثالث الأرمني، يذكر فيها سيطرته على بانياس وطبرية وقيسارية، ولكن عدم ورود ما يؤكد هذه الأخبار في المصادر العربية يدفع إلى التشكيك في مدى صحتها، والأرجح أن خطة زمسكيس كانت تهدف إلى السيطرة على تلك المناطق، لكنه عدل عنها واتجه إلى صيدا فسيطر على بيروت في طريقه شمالاً؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 554.

[8] الأنطاكي، تاريخ، ص 161–163؛ ابن القلانسي، ذيل، ص 14؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 554؛ سالم، تاريخ صيدا، ص 72.

[9] ابن أيبك، كنز الدرر، ج6، ص 170؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 162؛ ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 355؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 553–554؛ Treadgold, Warren, a History Of The byzantine State And society, Stanford, P 511-512. ؛554

بعد حصار دام أربعين يوماً، فتركها وتابع طريقه شمالاً، فسيطر على أنطرسوس وبانياس وجبلة واللاذقية، لينزل بعدها أنطاكية بغرض الراحة على إثر المرض الذي ألمّ به، ومنها توجه إلى القسطنطينية حيث وافاه الأجل بعد عدة أشهر من دخوله إليها، وليتولى بعده باسيل الثاني(365- 379هـ/ 976- 989م)[1].

ب-الصراع الفاطمي البيزنطي في عهد العزيز(365- 386هـ/ 976- 996م)[2]: بعد هذه المرحلة انصب كل اهتمام الدولة الفاطمية للقضاء على ثورة أفتكين التركي وحلفائه القرامطة في جنوب بلاد الشام، وكانوا قد نجحوا في السيطرة على الساحل الجنوبي لبلاد الشام وحواضره صيدا وصور وعكا ويافا وطردوا الحاميات الفاطمية منها، بعد أن ألحقوا الهزيمة بعامل الساحل الفاطمي ظالم بن موهوب العقيلي[3] وقتلوا عدد كبير من جنده الفاطميين[4]، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، إذ تمكن الخليفة العزيز الفاطمي(365- 386هـ/ 976- 996م) من القضاء على ثورتهما بعد أن خرج بنفسه إليهم في جيش كثيف سنة 367هـ/ 977م، وبالتالي نجح في إعادة السلطة الفاطمية على الساحل الجنوبي لبلاد الشام بعد القضاء على خصومه فيها[5]، وأقرّ عليها من جديد الأمير تميم التنوخي كأمير على بلاد الغرب وبيروت[6]، وبالتالي صار الساحل بأكمله له عدى طرابلس، ليقر أموره ويقوم بتعيين عمال من قبله على مدنه، كما خرج على الفاطميين بنو الجراح في فلسطين بقيادة الأمير دغفل بن المفرج الطائي وذلك سنة 369هـ/ 979م، فأرسل العزيز الفاطمي قوة عسكرية ضده بقيادة بلتكين التركي[7]، أدت إلى فرار دغفل ولجوئه إلى أنطاكية طالباً طالباً الحماية من البيزنطيين[8]، ولكن ما أن تم للفاطميين إقرار سلطتهم في جنوب بلاد الشام حتى وصلتهم أخبار قوات قوات بيزنطية تعتدي على مدن الساحل الشامي، وفيما يبدوا أن هذا الانشغال الفاطمي في جنوب بلاد الشام شجع البيزنطيين على الإغارة على السواحل الشامية، فقام الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني بإرسال قوة عسكرية، انطلقت من اللاذقية واتجهت جنوباً نحو مدن الساحل الشامي، فما كان من والي طرابلس الفاطمي المدعو نزّال[9] إلّا الخروج للتصدي لهذه القوة البيزنطية، فتمكن من الانتصار عليها وملاحقة فلولها حتى مدينة اللاذقية ودخولها والإيقاع بالقائد

---

[1] الأنطاكي، تاريخ، ص 165؛ النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 93؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 555-556.

[2] العزيز بالله الفاطمي: هو نزار أبو منصور بن معد أبو تميم ويلقب بالعزيز، ولد بالمهدية سنة 344هـ/ 955م وتولى وعمره إحدى وعشرين سنة وذلك سنة 365هـ/ 976م وتوفي وعمره اثنتان وأربعون سنة؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 236؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص 386.

[3] ظالم بن موهوب العقيلي: قدم دمشق وتولاها عدة مرات، أولها سنة 357هـ/ 968م وسنة 358هـ/ 969م وسنة 361هـ/ 972م وسنة 363هـ/ 974م كعامل للفاطميين؛ ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت، 571هـ/ 1175م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تح: عمر بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر، 1415هـ/ 1995م، ج25، ص 211.

[4] ابن القلانسي، ذيل، ص 15؛ ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 356-358؛ النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 96؛ الشدياق، الأعيان، ج2، ص 287؛ 287؛ سالم، تاريخ صيدا، ص 73-74.

[5] الأنطاكي، تاريخ، ص 181-182؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 240.

[6] الشدياق، الأعيان، ج2، ص 288؛ سالم، تاريخ صيدا، ص 75.

[7] بلتكين التركي: أحد الرقيق الأتراك الذي ترقى في المناصب حتى صار من قواد الجيش، برز في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله حتى كان يعرف ببلتكين العزيزي؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 200.

[8] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 376-377؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 242.

[9] نزّال: هو نزّال الغوري الكتامي من قواد العزيز، كان من غلمان عيسى بن نسطوروس وزير العزيز وكان تحت إمرته 6000 رجل من عسكر طرابلس، استمر على ولاية طرابلس ثمان سنوات، اشترك في سنة 378هـ/ 988م في إخماد حركة منير الصقلبي بدمشق، كما شارك في الأحداث التي دارت شمال بلاد الشام في تلك الآونة؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 195، هامش 7؛ سالم، طرابلس الشام، ص 51.

كرمروك مع خمسمائة من رجاله أسرى وذلك سنة 372هـ/ 982م[1]، وفي طريق العودة قام والي طرابلس بالسيطرة على على حصن بانياس وانتزاعه من سيطرة الروم البيزنطيين، الأمر الذي دفع عامل أنطاكية ليو ميليسينون[2] وبتكليف من الإمبراطور البيزنطي إلى النهوض لاسترداده[3].

كانت جيوش الإمبراطور تواجه المصاعب والانهزامات على جبهة البلقان بسبب الانتصارات المتتالية التي حققها البلغار سنة 376هـ/ 986م، كما انشغل بالعصيان الذي قاده بارداس فوكاس قائد جيوش الشرق[4]، هذا أمام تفوق فاطمي واضح على الجبهة الشامية وخاصة بعد سيطرتهم على حصن بانياس ووصولهم إلى اللاذقية وأسرهم لصاحبها، كل هذه المشاكل دفعت الإمبراطور باسيل الثاني للميل نحو مهادنة الفاطميين لدرء خطرهم[5]، في تلك المرحلة، ولمنع أي تواصل قد يحدث بين بارداس فوكاس المتمرد عليه في الشرق والفاطميين، وعليه فقد وصلت رسله إلى بيت المقدس سنة 377هـ/ 987م ومعهم الهدايا للعزيز طلباً للصلح، ومتعهدين بتلبية جميع شروطه[6]، الأمر الذي يعكس مدى حاجة حاجة الإمبراطور البيزنطي في تلك الآونة لعقد الهدنة مع الفاطميين، فتمت الاتفاقية بين الطرفين، ونصت على إطلاق سراح الأسرى المسلمين، والدعاء للخليفة العزيز يوم الجمعة في جامع القسطنطينية، إضافة إلى تقديم الإمبراطور للخليفة العزيز كل ما طلبه من الأمتعة الرومية، على أن تكون مدة المعاهدة سبع سنوات[7]، ويظهر من خلال هذه المعاهدة مدى التفوق والظهور الفاطمي على البيزنطيين في تلك الفترة حتى نجد البيزنطيين على تلك الحالة من التذلل وطلب الود والهدنة، وهو أمر انعكس إيجاباً على ساحل بلاد الشام، فهي من دون شك أعطت الفرصة للفاطميين في تعزيز تواجدهم في مدن الساحل الشامي وسائر بلاد الشام، وأدت إلى ازدهار تلك المدن تجارياً مع أجواء السلام والأمن التي سادت المنطقة في ظل الوئام الفاطمي البيزنطي[8]، وظلت تلك الهدنة قائمة حتى سنة 381هـ/ 991م، حين طمع القائد الفاطمي بكجور[9] المعزول عن إمرة دمشق والطامح سياسياً، والمتولي أمور الرقة في تلك الآونة بالسيطرة على حلب، فهوّن أمرها للخليفة الفاطمي العزيز بغرض استجداء مساعدته قائلاً له: " حلب دهليز العراق متى أخذت، كان

---

[1] أبو الفداء، إسماعيل بن محمد بن عمر (ت، 732هـ/ 1332م)، المختصر في أخبار البشر، القاهرة، مكتبة المتنبي، د.ت، ج2، ص 128؛ الأنطاكي، الأنطاكي، تاريخ، ص 194–195؛ النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 98؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 245.

[2] ليو ميليسينون، أو لاون المليسنوس: تولى أنطاكية سنة 375هـ/ 985م من قبل الإمبراطور وكلفه باسترداد حصن بانياس، ولكن بسبب سوء تصرفه، تصرفه، عزله في نفس العام وجعل بردس الفوقاس بديلاً عنه على أعمال أنطاكية والمشرق بأسره، في حين صار ليو ميليسينون من قواد الوالي الجديد وتحت تصرفه حتى سنة 384هـ/ 994م؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 204–205، 226–227.

[3] الأنطاكي، تاريخ، ص 204–205.

[4] من أشهر قادة الروم البيزنطيين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وصاحب تاريخ طويل في محاربة العرب المسلمين، برز من أولاده نقفور ولاوون كقادة عسكريين، فكان لهؤلاء الثلاثة دور كبير في الحياة السياسية للإمبراطورية البيزنطية في تلك الفترة، وكان في آواخر حياته قد خرج عن طاعة الإمبراطور البيزنطي باسيل طمعاً بإزاحة الإمبراطور والجلوس مكانه على عرش الإمبراطورية البيزنطية، فقتل على إثر عصيانه ذاك وذلك سنة 379هـ/ 989م؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 208–211؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص302، 303، 434، 615.

[5] كان العزيز الفاطمي قد باشر بالفعل في تجهيز قواته لغزو البيزنطيين؛ ابن تغري بردي، يوسف الأتابكي (ت، 874هـ/ 1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد عبد القادر حاتم، القاهرة، دار الكتب، 1383هـ/ 1963م، ج4، ص 151.

[6] العريني، الدولة البيزنطية، ص 611–612.

[7] تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص 151–154؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 246.

[8] يذكر ابن حوقل فيما كتبه حول سنة 367هـ/ 977م، أن الباقي من الشام في أيدي المسلمين وحكمهم فيه نافذ وأمرهم فيه ماض، فهو ما كان على ساحل بحر الروم من حد طرابلس إلى نواحي يافا وعسقلان، لأن اللاذقية وما جاورها تحت سلطة الروم؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 172.

[9] بكجور: مولى قرغويه (أحد غلمان سيف الدول)، تولى دمشق من قبل الفاطميين قادماً إليها من حمص سنة 371هـ/ 981م؛ كما قصد الرقة سنة 378هـ/ 988م، وأقام الدعوة فيها للفاطميين، وتوفي سنة 381هـ/ 991م؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج10، ص 375–376

بعدها أسهل"[1]، وفيما يبدو لاقت دعوته أذاناً صاغية عند العزيز الذي كلّف واليه على طرابلس نزّال[2] بالنهوض لمساندته حين الطلب، من دون الرجوع إليه[3]، مستغلين انشغال الإمبراطور باسيل الثاني بمحاربة البلغار[4]، وبلغ اهتمام اهتمام العزيز الفاطمي بأمر حلب، أنه قام بتجهيز قوة عسكرية جعل عليها منجوتكين[5] التركي وكلّفه ولاية الشام وأوكل إليه مهمة المسير إلى حلب[6]، الأمر الذي أثار مخاوف الإمبراطور باسيل الثاني، ودفعه إلى مغادرة جبهة البلقان والتوجه إلى حلب، فوصلها سنة 385هـ/ 995م على رأس قوة كبيرة دفعت منجوتكين إلى مغادرتها[7]، ليقوم باسيل بإقرار أموره في حلب ومن ثم مغادرتها متوجهاً إلى حماة وحمص ومنها إلى مدن الساحل، فنزل طرابلس محاصراً، لكنها امتنعت عليه لحصانتها، فغادرها متوجهاً إلى أنطرسوس فسيطر عليها وعمّرها وشحنها بالمقاتلين الأرمن، ليغادرها على إثر ذلك متوجهاً إلى أنطاكية التي عيّن عليها رجلاً يدعى الدوقس داميانوس دلاسينوس[8]، حين وصلت هذه الأخبار إلى مسامع العزيز الفاطمي، أعلن الجهاد ضد الروم وقام في سنة 386هـ/ 996م بتشكيل قوة كبيرة للتصدي للروم في بلاد الشام، كما أصدر أوامره بتجهيز قوة بحرية، جعل عليها رشيق العزيزي، ومهمتها أن تنطلق إلى السواحل الشامية لمساعدة القوات البرية والمشاركة في استعادة أنطرسوس، ولما وصلت أخبار هذه الحملة الفاطمية إلى مسامع الإمبراطور باسيل الثاني، أصدر أوامره إلى داميانوس، عامله على أنطاكية، بالخروج إلى أنطرسوس لمساعدة الحامية البيزنطية فيها، فلم تتمكن القوات الفاطمية المشتركة البرية والبحرية من السيطرة على أنطرسوس[9]، فما هي الأسباب التي أدت إلى إضعاف الحملة الفاطمية في مهمتها؟

الحقيقة أن هناك عدة أسباب، أولها حالة الإرباك التي أحاطت واكتنفت ظروف تحضيرها، فالأسطول البحري الذي تم تجهيزه للغزو تعرض لحريق أتلف معظم السفن ولم ينجُ إلا قلة قليلة منه[10]، ما دفع الفاطميين إلى تحضير أسطول

---

[1] ابن القلانسي، ذيل، ص 34؛ ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 453-454؛ عدوان، أحمد، الدولة الحمدانية، ليبيا، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع، ط1، 1981م، ص 314؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 246.

[2] كان نزّال والي الرملة في تلك الآونة، وكان قد شارك في إقرار أمور دمشق بعد خروج عاملها منير الخادم عن طاعة الفاطميين، وبالتالي يمكننا الاستنتاج أن نزّال كان له أكثر من طرابلس من إمارات الساحل، أو لعله صرف عن طرابلس لفترة وأعيد إليها؛ النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 100.

[3] ابن القلانسي، ذيل، ص 58؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص246؛ لم يستمر تميم التنوخي على ولايته، فبعد أن فرغ منجوتكين من الروم، قام بعزله عن عمله وعين بدلاً عنه ناصر الدولة منصور بن الأمير فخر الدولة درويش التنوخي، الذي بدوره قام بتولية الأمير مذحج التنوخي على صيدا، وصور إلى الأمير هارون التنوخي؛ الشدياق، الأعيان، ج2، ص 288؛ سالم، تاريخ صيدا، ص 76

[4] العريني، الدولة البيزنطية، ص 667.

[5] منجوتكين: أحد غلمان الخليفة العزيز الفاطمي، وقد ولاه العزيز دمشق سنة 381هـ/ 980م واستمر عليها حتى سنة 383هـ/ 982م، وتوفي 385هـ/ 385هـ/ 984م؛ ابن القلانسي، ذيل، ص40-41؛ الصفدي، خليل بن أيبك (ت، 764هـ/1363م)، أمراء دمشق في الإسلام، دمشق، المجمع العلمي العربي، ط1، 1955م، ص 103، 116؛ الحياري، مصطفى علي مصطفى، الإمارة الطائية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، بيروت، الجامعة الأميركية، 1969م، ص 58 هامش 4.

[6] الأنطاكي، تاريخ، ص 221.

[7] ابن القلانسي، ذيل، ص43؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 225؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ص108؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 666-667.

[8] الدوقس داميانوس: تولى أنطاكية سنة 385هـ/ 995م، وأغار في أول سنة من ولايته على طرابلس ثم كرر ذلك في السنة التالية، وسبى خلقاً كثيراً من أهلها، وظل عليها حتى سنة 388هـ/ 998م، حي كان مقتله مع عدد كبير من أفراد أسرته وقواده على مشارف أفامية، ولقب الدوقس، هو تعريب لكلمة DUX وهو مصطلح يدل على القائد مثل البطريق والدمستق؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 177، 230/ هامش 8، 242؛ سالم، طرابلس الشام، ص 58.

[9] الأنطاكي، تاريخ، ص 234؛ ابن القلانسي، ذيل، ص 44؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 668-670-671.

[10] يتضح من خلال ما ذكره النويري أسباب ذلك الحريق بشكل جلي، فذلك الحريق لم يكن بمحض الصدفة، وإنما كانت عملية مخطط لها ومدعومة من قبل البيزنطيين، والذي نظم ذلك الحريق وخطط له جالية من الروم البيزنطيين كانت متواجدة في مصر في ذلك الحين، فقامت بشراء نفوس عدد ليس= =بالقليل من الأمراء والقادة الفاطميين الذين سهلوا عملية إحراق الأسطول، ولكن سرعان ما كشف أمرهم بعد أن أُحرق الأسطول ودار صناعة السفن بما

جديد وبسرعة كبيرة، ما كان له عظيم الأثر في التأثير سلباً على دقة صناعتها، فلم تكن ذات كفاءة، الأمر الذي أدى إلى غرق قسم كبير منها قبالة سواحل طرابلس، كما أسر البيزنطيون عدداً من بحارة السفن الفاطمية التي تبقت ووصلت أنطرسوس[1]، وثانيها، تعرض الحملة البرية لحادث أخّر في انطلاقها وأثار الجلبة في نفوس القوّاد، وهو اشتداد المرض على الخليفة العزيز قبل مغادرة الحملة مصر، ومن ثم وفاته وتولي الحاكم الصغير في السن.

ج-الصراع الفاطمي البيزنطي في عهد الحاكم بأمر الله(386- 411هـ/ 996- 1021م)[2]: كانت ظروف وفاة العزيز وتولي الحاكم قد أربكت القوات، وجعلت الحملة الفاطمية ضعيفة وغير منظمة كفاية لتحقيق الغرض الذي نهضت لأجله، الأمر الذي أدى إلى إخفاقها وتقهقرها على مشارف أنطرسوس، وهنا يمكننا القول أن الحد الفاصل بين البيزنطيين والفاطميين على الساحل الشامي، كان متقلّباً حسب الأحوال السائدة، فيمكننا ملاحظة أن حصن بانياس كان الحد الفاصل بينهما حين كان الفاطميون متغلبين على البيزنطيين، في حين صارت طرابلس هي الحد الفاصل بينهما خلال فترة الظهور البيزنطي على الفاطميين، واستمر البيزنطيون في العمل على تقويض الوجود الفاطمي على ساحل بلاد الشام، سواء من خلال التدخل المباشر كسيطرتهم على أنطرسوس وشحنها بالقوات المقاتلة كما ذكر سالفاً وإرسال الحملات العسكرية، أو من خلال التدخل غير المباشر، وذلك عن طريق دعم الخارجين عن طاعة الفاطميين، ومثال ذلك ما حصل سنة 387هـ/ 997م، حين خرجت مدينة صور عن طاعة الفاطميين، وقيام وجوهها بتولية أمورها لأحد رجال البحر فيها ويدعى "العلّاقة" الذي أعلن استقلاله فيها[3]، كما قام بضرب السكة باسمه ونقش عليها عبارة "عز بعد فاقة، الأمير علّاقة" كما تخلّص من الموظفين الفاطميين فيها وعلى رأسهم أبي الفتح بن الشيخ[4]، الأمر الذي أثار الخشية في نفوس الفاطميين من تقوّض سلطتهم في بلاد الشام خاصة أن ذلك ترافق مع خروج مفرج بن دغفل الطائي في فلسطين، فقام الفاطميون بتوجيه قوة بحرية من عشرين سفينة إلى صور بقيادة رجل يدعى العُكبري المنجم، كما صدرت الأوامر من مصر إلى والي طرابلس القاضي أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن حيدرة الكتامي، وإلى والي صيدا غالب بن مسعود بن المنذر بالتوجه إلى صور للمشاركة في القضاء على الفتنة فيها[5]، بالإضافة إلى قوة برية مؤلفة من ألف مقاتل، بقيادة القائد جيش بن الصمصامة[6] والي طرابلس[1]، فما كان من العلّاقة بعد أن أدرك سوء

فيها من أسلحة ومعدات، فتم القبض على مائة وسبع من الأمراء وقتلهم بسبب خيانتهم، كما اعترف أفراد الجالية البيزنطية بما فعلوه، فتمت معاقبتهم وأُحرِقت كنيسة الروم في القاهرة ونهبت؛ النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 101.

[1] الأنطاكي، تاريخ، ص 233 234؛ المقريزي، أحمد بن علي (ت، 845هـ/ 1441م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا، تح: محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1416هـ/ 1996م، ج2، ص 290؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 249.

[2] الحاكم بأمر الله الفاطمي: هو منصور بن نزار بن معد بن اسماعيل بن محمد الفاطمي ولد في القاهرة سنة 375هـ/ 974م، تولى الحكم وهو صغير السن؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص3؛ الزركلي، الأعلام، ج7، ص 305-306.

[3] كان العلاقة رجل طامع وحالم في إقامة إمارة لنفسه، وساعده على تحقيق ذلك ولو لفترة قصيرة، عدة عوامل، أولها: حالة الاضطراب السائدة في مصر بسبب الصراع بين المشارقة والمغاربة، واضطراب أحوال بلاد الشام بخروج دمشق عن طاعة الفاطميين، إضافة إلى تدخل البيزنطيين الراغبين بتقويض النفوذ الفاطمي على ساحل بلاد الشام الجنوبي، فشجعوه على ذلك واعدين إياه بالنصرة والدعم؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 240-242.

[4] الأنطاكي، تاريخ، ص 240- 241؛ ابن القلانسي، ذيل، ص 50؛ أبو شجاع، محمد بن الحسين(ت،389هـ/ 999م)، ذيل تجارب الأمم، تح، هـ- ف- أمدروز، مصر، شركة التمدن الصناعية، 1334هـ/ 1916م، ج3، ص 226؛ كان أبو الفتح بن الشيخ قد تولى صور بعد الأمير فحل الكتامي الذي بدوره تولاها بعد الأمير هارون بن حمزة بن سعد بن محمود بن الحسين بن محمود، وما تبديل الولاة يتلك الفترة القصيرة، إلّا دليلاً على عدم كفاءتهم وضيق الأهالي منهم، وبالتالي نستطيع تفهم أسباب ثورة العلاقة التي قامت نتيجة لسوء الأحوال وضيق الأهالي من ذلك؛ الشدياق، الأعيان، ج2، ص 289؛ سالم، تاريخ صيدا، ص 76.

[5] ابن القلانسي، ذيل، ص 79-80؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 288.

[6] جيش بن محمد بن الصمصامة: أبو الفتوح (ت، 391هـ/ 1001م) تولّى أمرة دمشق ثلاث مرات زمن الفاطميين أولها سنة 363هـ/ 974م، بعد أن صرف القائد ظالم بن موهوب العقيلي عن ولايتها، ثم تولّى أمرة طرابلس لفترة قصيرة سنة 386هـ، ثم تولاها في نفس العام علي بن جعفر بن فلاح قائد

المصير وعجزه عن التصدي للحشود الفاطمية، إلا أن طلب المساعدة من الإمبراطور البيزنطي، واعداً إياه بتسليم المدينة، فأسرع الإمبراطور بنجدته طمعاً في السيطرة على صور، فقام بتكليف عامله على أنطاكية داميانوس دلاسينوس بتوجيه قوة بحرية من قبله لمساندة العلاقة في ثورته، ولكن هذه القوة البيزنطية لاقت الهزيمة الساحقة على يد الأسطول الفاطمي بقيادة العُكبري قائد الأسطول المصري وعلي بن حيدرة القاضي على رأس أسطول طرابلس، فوقع عدد كبير منهم في أسر المسلمين، الأمر الذي ساعد الفاطميين على إحكام حصارهم لصور، حتى نجحوا في اقتحام المدينة بعد أن طلبوا من أهلها لزوم منازلهم، فقبضوا على العلّاقة واقتادوه إلى مصر حيث تم إعدامه، في حين تم تولية الحسين بن ناصر الدولة الحمداني على صور(388هـ/ 998م) وجرى تكليفه بمهمة توطيد سلطة الفاطميين فيها[2]، وبذا يكون الفاطميون قد نجحوا في القضاء على ثورة من أخطر الثورات التي هددت نفوذهم على ساحل بلاد الشام فيما لو قدّر لها النجاح، وبعدها تفرّغ ابن الصمصامة لإخضاع مفرج بن دغفل الطائي وإعادة الأمن والاستقرار لفلسطين وسائر مدن الساحل الفلسطيني[3]، ولم يركن البيزنطيون للهدوء بعد القضاء على ثورة العلّاقة، بل أرادوا الانتقام لما حصل لقواتهم البحرية على شاطئ صور، وذلك باستغلال حالة الفوضى الناجمة عن أحداث صور، لذلك أوكل الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني إلى داميانوس دلاسينوس عامله على أنطاكية سنة 388هـ/ 998م بغزو بلاد الإسلام، فخرج إلى أفاميا وضرب عليها الحصار، فتصدت له القوات الفاطمية في بلاد الشام، إذ خرج ابن الصمصامة عامل دمشق الفاطمي، كما خرج معه والي طرابلس علي بن حيدرة القاضي ووالي صور الحسين بن ناصر الدولة الحمداني ووالي بيروت مطوع بن تميم التنوخي[4]، وخرجوا معاً في صورة جميلة من التلاحم والتعاضد ووحدة الحال من الخضوع لأوامر الخلافة الفاطمية والالتزام بدفع عدوهم عن بلاد الشام، فانقضوا على القوات البيزنطية، وقتل دلاسينوس وخلق كثير من جماعته، كما وقع عدد كبير منهم في أسر المسلمين[5]، الأمر الذي أجبر الإمبراطور البيزنطي المشغول بمحاربة البلغار إلى إرسال وفادة من قبله إلى القاهرة تعرض الصلح وعقد الهدنة مع الفاطميين، ولكن فيما يبدو لم يوافق الفاطميون على ذلك، بدليل انقطاع أخبار هذه الوفادة، وقيام باسيل الثاني في العام التالي 389هـ/ 999م بحملة عسكرية إلى بلاد الشام، فبعد مقتل عامله على أنطاكية والتفوق الذي أبداه الفاطميون في بلاد الشام، وإخفاق وفادته التي أرسلها إلى القاهرة، اعتراه القلق حول النفوذ البيزنطي في تلك النواحي، لذا عزم على مغادرة بلاد البلغار والتوجه إلى بلاد الشام لإقرار أمورها مجدداً، فدخلها من جسر الحديد وتوجه إلى شيزر، فسيطر عليها، ومنها توجه إلى حمص[6]، ثم تابع إلى طرابلس فوصلها في شهر ذي الحجة 389هـ/ كانون الأول 999م[7]، وحفر خندقاً حول حصنها وقطع الماء عنها عن طريق تخريب قناته، وأحكم حصاره على المدينة بمساندة بعض قطع أسطوله البحري، لكن

الجيوش الفاطمية السائرة إلى الشام(ت، 409هـ/ 1019م)، وكذلك الأمر لفترة قصيرة، ثم خلفه الأمير تميم التنوخي، ثم ميسور الخادم الصقلبي الذي صرف عنها سنة 387هـ؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 48، 51، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 17- 18؛ الشدياق، الأعلام، ج2، ص 289؛ الصفدي، خليل بن أيبك(ت، 764هـ/1363م)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط- تركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ج11، ص 177؛ النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 109، هامش 3؛ سالم، طرابلس الشام، ص 51.

[1] في تلك الآونة كان جيش بن الصمصامة والياً على طرابلس ثم عزل بنفس العام من قبل أبي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح حاكم دمشق في تلك الفترة، الذي كان قد كلف بالقضاء على تمرد منجوتكين في الشام، وعين عليها أخاه علي بن جعفر بن فلاح؛ النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 107.

[2] الأنطاكي، تاريخ، ص241؛ ابن القلانسي، ذيل، ص 50-51؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 673.

[3] ابن القلانسي، ذيل، ص 51؛ ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 480؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 289.

[4] ابن القلانسي، ذيل، ص 51-52؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 242-243.

[5] النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 109.

[6] الأنطاكي، تاريخ، ص 241-244؛ أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، ج3، ص 227؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 670-673.

[7] Warren, History of the Byzantine State, P 522- 523.

الحامية الفاطمية بقيادة القاضي علي بن حيدرة نجحت في صد البيزنطيين، وألحقت بهم خسائر كبيرة دفعتهم إلى فك الحصار عن المدينة، ومما لا شك فيه أن توارد الأخبار إلى باسيل بالحشود الفاطمية ضده بقيادة والي دمشق ابن الصمصامة، دفعته بالتعجيل في تنفيذ هجومه على طرابلس في الوقت الذي كانت فيه الكثير من سراياه في مهام قتالية ضد الحاميات الفاطمية على طول الساحل الشامي، وخاصة بيروت وجبيل وجبلة، الأمر الذي دفعه إلى فك الحصار والانسحاب شمالاً باتجاه اللاذقية ومنها إلى أنطاكية ومعه الكثير من الأسرى المسلمين، حيث استقر فيها لمدة قام خلالها بإصلاح أمورها وعيّن عليها نقفور أورانوس[1].

أدى ذلك التصعيد العسكري بين الفاطميين والبيزنطيين في منطقة الساحل الشامي إلى كثير من الخراب والدمار و وقوع كثير من الأسرى، ولكنه لم يستمر طويلاً، إذ خلفه مرحلة من الهدوء والاستقرار بسبب رغبة الفاطميين في السلام ومهادنة البيزنطيين، بعد اضطراب أحوال مصر الداخلية[2]، فأرسل الحاكم سفارة برئاسة أريسطس بطريرك بيت المقدس[3] المقدس[3] لمفاوضة البيزنطيين وعقد الهدنة معهم، كان باسيل قد رحب بذلك وتم الاتفاق على هدنة مدتها عشر سنوات في سنة 391هـ/ 1001م، تضمنت بنود تخص النصارى وحريتهم الدينية، وتعهد بيزنطي بتزويد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب[4]، وعلى إثر تلك المعاهدة تفرغ الطرفان الفاطمي والبيزنطي لإقرار أمورهما وحل مشاكلهما، وكان من نتائج نتائج تلك الهدنة أن تمتع الساحل الشامي بشكل عام بحالة من الاستقرار، استمرت نحو العقدين من الزمن، وذلك في ظل السلام بين الفاطميين والبيزنطيين ولا يرد خلالها في المصادر سوى أحداث تدل على مدى أهمية الساحل الشامي عند الفاطميين ومدى مركزية مدينة طرابلس وخاصة ما جرى سنة 399هـ/ 1008م حين كثرت الاضطرابات في حلب على إثر وفاة حاكمها لؤلؤ، فتوجه قاضي طرابلس علي بن حيدرة[5]، على رأس قوة عسكرية لإقرار أمورها، وما جرى سنة 404هـ/ 1013م حين خرج المفرج بن دغفل الطائي على الفاطميين في منطقة فلسطين، فتحركت الحاميات الفاطمية في مدن الساحل الأخرى وخاصة طرابلس لمساعدة الجيش المصري بقيادة علي بن فلاح في القضاء على ذلك التمرد[6].

د– الصراع الفاطمي البيزنطي في عهد الظاهر(411– 427هـ/ 1021– 1036م)[7]: في سنة 414هـ/ 1023م تعرض النفوذ الفاطمي في بلاد الشام لقلقلة كبيرة وخطيرة قادها زعيم قبيلة طيئ حسّان بن الجراح

---

[1] الأنطاكي، تاريخ، ص 245–246؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 676.

[2] طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 301.

[3] أريسطس أو أسطس: كان بطريرك بيت المقدس وكان الحاكم قد اختاره على تلك السفارة لثقته به ولعلاقته الطيبة معه، فالبطريرك كان خال والدته، وكان قد جعله على بطرياركية بيت المقدس منذ سنة 375هـ/ 985م وظل عليها عشرين سنة حتى كانت وفاته في القسطنطينية سنة 395هـ/ 1005م، كما جعل أخيه أرسانيوس مطراناً على القاهرة؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 203، 248/ هامش 4.

[4] الأنطاكي، تاريخ، ص 247–248؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 677.

[5] كان والي طرابلس الرسمي في تلك الآونة رجل يدعى القائد أبو سعادة واستمر من سنة 400 وحتى سنة 407هـ/ 1009–1016م، لكن السلطة الفعلية كانت بيد القاضي علي بن حيدرة؛ سالم، طرابلس الشام، ص 52.

[6] الأنطاكي، تاريخ، ص 305؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ص 113؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 670–679؛ في سنة 405هـ/ 1014م قام الحاكم بأمر الله بإقطاع صور وصيدا وبيروت للفتح القلعي الذي كان صاحب نفوذ في قلعة حلب في أواخر دولة بني حمدان، وكان في خدمة أبي نصر بن= =لؤلؤ صاحب حلب، ولقبه مبارك الدولة وسعدها، الذي بدوره ولّاها للؤلؤ بعد خروجه من حلب سنة 406هـ/ 1015م، ولكن لم يطل به المقام، فقد توفي في مصر سنة 408هـ/ 1017م ابن العديم، زبدة الحلب، ص 112؛ سالم، تاريخ صيدا، ص 77–78؛ شبارو، تاريخ بيروت، ص 56.

[7] الظاهر لإعزاز دين الله: هو أبو الحسن علي بن الحاكم بأمر الله منصور، ولد في القاهرة سنة 395هـ/ 1004م وتولى الحكم سنة 411هـ/ 1021م وتوفي سنة 427هـ/ 1036م؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 124–125.

الطائي، متحالفاً مع سنان بن عليان زعيم قبيلة كلب، وصالح بن مرداس زعيم قبيلة كلاب[1]، وتتبع خطورة هذا التحالف بشكل أساسي من اتصال قادته مع الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني وطلبهم منه التأييد والمساعدة، لكن باسيل رفض مطلبهم رغبةً منه في المحافظة على حالة المهادنة مع الفاطميين وعدم توتير العلاقات معهم على الجبهة الشامية، إضافة إلى انشغاله بمشاكله الداخلية[2]، ولكن هؤلاء الحلفاء تمكنوا من انتزاع العديد من المناطق من سيطرة الفاطميين، فاستولى حسان بن الجراح على الرملة، وسيطر على الساحل الفلسطيني ودخل عسقلان بعد أن تغلب على قوة فاطمية بقيادة أنوشتكين الدزبري سنة 415هـ/ 1024م، كما تمكن صالح بن مرداس من السيطرة على صيدا وحصن ابن عكار في سنة 416هـ/ 1025م،[3]، الأمر الذي أثار الريبة في نفس الخليفة الظاهر من سقوط كامل الساحل بيد أولئك الخارجين عن سلطته، وهو أمر كان على وشك الحدوث، خاصة بعد سيطرة القوات الخارجة على حصن غزة، بحيث لم يبقَ سوى بعض الحصون بيد الفاطميين كطرابلس وصور، وبالتالي تسهيل سقوطها بيد البيزنطيين، مما دفعه إلى إرسال عددٍ من القطع البحرية بغرض تأمين الحماية، نزلت طرابلس وصور[4]، إلى حين استقرت الأمور له فقرر إعادة سلطته على بلاد الشام والقضاء على المتمردين فيها، مستفيداً من أجواء الوئام بين الفاطميين والبيزنطيين على إثر عقد معاهدة سلام بينهما سنة 418هـ/ 1027م[5]، ومما لا شك فيه أن من مفرزات هذه المعاهدة أن سمحت للخليفة الظاهر التفرغ لقمع حركة التمرد الشامية، ودليلنا على ذلك شروع الظاهر بتحضير حملة لإعادة سلطة الفاطميين على بلاد الشام، ففي سنة 420هـ/ 1029م توجهت قواته وكان على رأسها أنوشتكين الدزبري[6] وقوامها سبعة آلاف جندي[7]، اشتبكت مع حسان بن الجراح وحليفه صالح بن مرداس في منطقة غزة، حيث لم يستطيعا الصمود أمام القوات الفاطمية، مما اضطرهم إلى التراجع حيث جرت بينهما معركة فاصلة في منطقة الأقحوانة القريبة من بحيرة طبرية، كانت نتيجتها نصر فاطمي على القوات المتحالفة ومقتل صالح بن مرداس، وهروب حسان بن الجراح بعد الهزيمة إلى

---

[1] الأنطاكي، تاريخ، ص 390؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ص 126؛ وصالح بن مرداس: هو أسد الدولة صالح بن مرداس بن إدريس الكلابي أبو علي، وهو أول الأمراء المرداسيين في حلب، لقبه الحاكم بأمر الله بأسد الدولة، سيطر على حلب سنة 415هـ/ 1024م وحاربه الظاهر الفاطمي، وكان من دهاة الأمراء وشجعانهم وقتل في الأقحوانة بالقرب من طبرية في إحدى الوقائع مع الفاطميين؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 487.

[2] الأنطاكي، تاريخ، ص 390؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 315؛ في الحقيقة لم تتجاوز أهداف ذلك التحالف وأسبابه، حدود المطامع الشخصية لكل واحد منهم، فالأمير المرداسي كان يطمع في تمكين نفوذه وسلطانه في شمال بلاد الشام، والأمير الكلبي في السيطرة على دمشق وما جاورها، وكذلك الأمر الأمير الطائي في انتزاع الرملة وما جاورها من بلاد فلسطين والانفراد بها، وكان ذلك قد تحقق لهم إلى حد كبير، ولكن إلى حين.

[3] الأنطاكي، تاريخ، ص 389-393؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 691.

[4] طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 318.

[5] كان من بنود تلك المعاهدة، أن تقام الخطبة في جامع القسطنطينية للخليفة الفاطمي دون سواه، وإعادة ترميم جامع القسطنطينية وإصلاحه وتزيينه، وتعهد الظاهر بإعادة إعمار كنيسة القيامة في بيت المقدس، والسماح لمن أظهر الإسلام من النصارى في عهد الحاكم، بالعودة إلى نصرانيتهم؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 176؛ من الجدير بالتنويه، أن الدولة البيزنطية وبعد وفاة الإمبراطور باسيل الثاني سنة 416هـ/ 1025م دخلت في حالة من التدهور امتدت حتى سنة 474هـ/ 1081م، ويدل على ذلك تعاقب الأباطرة وسرعة تغييرهم، وهو الأمر الذي يشير إلى عدم الاستقرار السياسي، فقد حكمها خلال تلك الفترة ثلاثة عشر إمبراطور؛ عوض، محمد مؤنس، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات، جامعة عين شمس، ط1، 1999م، ص 40.

[6] هو الأمير المظفر أبو منصور أنوشتكين الدزبري التركي، أصله من بلاد ما وراء النهر، اشتراه أحد الأعيان ونقله إلى بغداد، ومنها نقل إلى دمشق سنة سنة 400هـ/ 1010م، حيث اشتراه دزبر بن أونيم الديلمي، ثم هداه للخليفة الحاكم وهناك علا شأنه حيث أسندت إليه بعض الأعمال الشامية ومنها= =فلسطين بأكملها وذلك سنة 414هـ/ 1023م، هزم صالح بن مرداس في الأقحوانة وقتله، وسيطر على حلب سنة 429هـ/ 1038م وظل عليها حتى وفاته 433هـ/ 1042م؛ ابن القلانسي، ذيل، ص 71- 79؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج9، ص 242؛ سالم، تاريخ صيدا، ص 79، هامش7.

[7] ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 73-74؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 316.

الإمبراطور البيزنطي للاحتماء عنده[1]، بينما تمكّنت القوات الفاطمية من استعادة حصن صيدا وحصن ابن عكار[2]، فرد البيزنطيون بأن أغاروا بقيادة نيقيطا[3] قبطان أنطاكية على حصن مرقية فطرد المسلمين منها وزاد في تحصينها، ومنها توجه إلى عرقة القريبة من طرابلس فسبى كثيراً من أهلها وعاد بهم إلى أنطاكية[4]، وبذلك يكون الفاطميون قد استعادوا جميع نقاط الساحل الشامي (التي خرجت من تحت سلطتهم)، وليعود التنافس الفاطمي البيزنطي للسيطرة على ذلك الساحل، خاصة مع توجه ميخائيل قبطان أنطاكية[5] نحو حلب للسيطرة عليها بعد مقتل صالح بن مرداس وما تبع ذلك من توسع فاطمي استعادوا من خلاله جميع النقاط التي كانت قد سلبت منهم، كما أخذ الإمبراطور البيزنطي يعمل على تأليب أمراء الشام للخروج على الخلافة الفاطمية وخاصة والي طرابلس[6]، نظراً لأهميتها عند الفاطميين، فعقد معاهدة مع أميرها ابن النزّال، تعهد فيها الأمير بدفع جزية سنوية للإمبراطور البيزنطي[7]، الأمر الذي أثار حفيظة الظاهر الفاطمي ودفعه إلى إعلان الجهاد في مصر والديار الشامية لاستعادة طرابلس، التي جنح واليها للأمان مع البيزنطيين، فدخلت القوات الفاطمية طرابلس سنة 424هـ/ 1033م، وفرّ مختار الدولة بن نزّال إلى أنطاكية، الأمر الذي أثار حنق الإمبراطور البيزنطي ودفعه إلى إرسال حملة بحرية اصطدمت مع البحرية الفاطمية قبالة طرابلس وتغلبوا على الفاطميين واستعادوا السيطرة على المدينة، ولكن إلى حين، حيث ثار أهلها بمساندة القوات الفاطمية وتمكنوا من استعادتها[8]، ولم يستمر الصدام بين الفاطميين والبيزنطيين وقتئذ على السواحل الشامية، بل جنح الطرفان إلى السلم، وشرعا في إجراء مفاوضات سلام بينهما، على أن يجتمع ممثلوهما في أنطرسوس للاتفاق حول بنود المعاهدة، لكن في الحقيقة لم يتم إقرار تلك الاتفاقية حتى أواخر أيام الظاهر الفاطمي سنة 427هـ/ 1036م ولمدة عشر سنوات[9].

---

[1] الأنطاكي، تاريخ، ص 413؛ الاستقبال الذي قوبل به حسان بن الجراح في القسطنطينية واشتراكه مع البيزنطيين في السيطرة على أفاميا سنة 421هـ/ 1030م، ومن ثم استقراره مع أبناء عشيرته بالقرب من أنطاكية وتحت حماية الإمبراطور البيزنطي، دليل على عمق العلاقات بين الطرفين؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 423 424–425؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 317.

[2] الأنطاكي، تاريخ، ص 412؛ ابن القلانسي، ص 73؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 777؛ كان والي طرابلس في تلك الآونة مختار الدولة بن نزّال وهو الذي استعاد حصن ابن عكار من المرداسيين؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 321.

[3] نيقيطا الرقطر، قدم أنطاكية سنة 421هـ/ 1030م، قاد العديد من الحملات العسكرية على حصون المسلمين، وهو الذي أشرف على مفاوضات الهدنة مع الفاطميين من جانب بيزنطة والتي أسفرت في نهاية الأمر إلى إقرار معاهدة السلام بين الطرفين آواخر عهد الظاهر الفاطمي؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 418–431.

[4] الأنطاكي، تاريخ، ص 421.

[5] ورد في تاريخ الأنطاكي " وكان وقتئذٍ بأنطاكية قطبانٌ خادم يسمى ميخائيل ويعرف بالأسقنديلس"، لعله أراد بلفظ قطبان أن يقول قبطان، بذلك يكون ميخائل أحد قادة القوات البحرية البيزنطية المتواجدة في أنطاكية في ذلك الحين؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 412.

[6] كان والي طرابلس في تلك الآونة مختار الدولة بن نزّال الكتامي، واستمر في ولايتها من سنة 407هـ/ 1016م وحتى سنة 462هـ/ 1070م، حين أعلن القاضي ابن عمار استقلاله عن الخلافة الفاطمية، وبالرغم من فرار ذلك الوالي من طرابلس سنة 424هـ/ 1033م ولجوئه إلى البيزنطيين، فإن مسار الأحداث يدفعنا إلى ترجيح عودته إلى عمله بعد معاهدة السلام الفاطمية البيزنطية التي تم إقرارها سنة 427هـ/ 1036م، إذاً كانت فترة ولايته على طرابلس طويلة نسبياً ولكنها لم تكن مستمرة وإنما متقطعة؛ سالم، طرابلس الشام، ص 53.

[7] العريني، الدولة البيزنطية، ص 782.

[8] طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 326.

[9] الأنطاكي، تاريخ، ص 434–435؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 182؛ كان من أبرز بنود المعاهدة أن الإمبراطور البيزنطي يعيد بناء كنيسة القيامة، وأن يرمم النصارى جميع الكنائس المدمرة في الدولة الفاطمية، وألا يتعرض الظاهر لحلب ويتركها تؤدي ما عليها للإمبراطور، وأن يعاد حسان بن الجراح إلى إقطاعه على أن يلتزم الهدوء، وأن يقوم الإمبراطور بإطلاق سراح الأسرى المسلمين، ويعطى حصن شيزر للمسلمين وأفاميا للبيزنطيين، ويتعهد بعدم مساعدة صاحب صقلية؛ الأنطاكي، تاريخ، ص 436–438؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 327.

هـ- الصراع الفاطمي البيزنطي في عهد المستنصر(427-447هـ/1036-1055م)[1]: على إثر المعاهدة التي تمّت أواخر عهد الظاهر، ساد السلام والهدوء الساحل الشامي لمدة تزيد عن العقدين من الزمن، كانت نتيجته الرخاء الاقتصادي والازدهار العمراني لبلدان الساحل الشامي ويؤكد ذلك ما ذكره الرحالة الفارسي ناصر خسرو، الذي قصد بلاد الشام في تلك المرحلة تماماً، فوصف الحالة العمرانية لمدن الساحل الشامي، وقد تميزت في معظمها بالحصانة وجودة عمرانها وقوته، كما تطرق لموانئ تلك المدن، قائلاً أن لمعظم مدن الساحل موانئ للسفن، وأهم تلك الموانئ وأجلّها كان ميناء عكا، كما تحدث عن الأسواق وتغنّى بنظافتها وعمرانها، وأبرز المدن التي زارها وكانت مشتهرة بأسواقها كانت مدينة صيدا وصور وطرابلس، كما نوّه إلى وجود الأربطة التي كانت تستعمل للمرابطة والجهاد فضلاً عن كونها مكاناً يأوي المسافرين والرحالة إليه، وكذلك الأمر ذكر وجود الحصون على مقربة من مدن الساحل لحمايتها والدفاع عنها في أوقات الحروب، كالتي كانت إلى الشرق من مدينة طرابلس[2]، كما تطرق إلى النهضة الزراعية التي شهدها الساحل الشامي، حيث كان موطناً للعديد من الزراعات من قصب سكر ونخيل وتين وزيتون وغيرها، بالإضافة إلى نشاط صناعي ملحوظ شهده ذلك الساحل في تلك الآونة وخاصة طرابلس[3]، هذا النشاط الزراعي الزراعي والصناعي على الساحل الشامي، حتّم الازدهار التجاري وهو الأمر الذي تطرّق إليه كذلك الأمر ناصر خسرو في رحلته تلك، فقد أشاد بالأهمية التجارية لكل من طرابلس وأنطاكية بحكم وقوعهما على طرق التجارة العالمية فهما نافذتا دمشق وحلب على بحر الروم(البحر الأبيض المتوسط)[4]، وخاصة طرابلس التي اشتهرت بمينائها الذي كانت تأتيه وتنطلق منه السفن محملة بالبضائع باتجاه بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب وبالعكس، فتحصل منها ضريبة العشر، التي يدفع منها أرزاق الجند[5]، فضلاً عن بيروت وعكا وصور التي اشتهرت كل منها بكونها مركز تجاري إسلامي مهم منذ بدايات الفتح العربي الإسلامي لهم[6]،كما عرّج ناصر خسرو إلى وصف التركيبة السكانية للساحل الشامي، فذكر أن طرابلس وصور من الشيعة، ولكنه وفي معرض حديثه ذاك، قدم لنا صورة جد مشرقة عن التعايش السلمي والحالة الحضارية التي كان بها سكان ذلك الساحل، فيذكر مثلاً أنه وعلى الرغم من أن سكان صور من الشيعة، إلّا أن قاضي المدينة كان سنياً واسمه ابن أبي عقيل[7]، الأمر الذي يعكس مدى الوعي الذي تمتع به سكان ذلك الساحل، ولعل أبرز العمال الذين تولّوا أمر الساحل في تلك الفترة كان أبو سعيد قابوس بن فاتك[8] أمير بيروت والغرب من قبل المستنصر الفاطمي سنة 439هـ/ 1047م، ومعز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس سنة 443هـ/

---

[1] المستنصر بالله الفاطمي: معد بن الظاهر علي بن منصور الحاكم بأمر الله، ولد في القاهرة سنة 420هـ/ 1029م، بويع بالخلافة سن 427هـ/ 1036م وهو صغير، فتغلبت والدته على أمر الدولة، واستمر في خلافته حتى سنة 487هـ/ 1094م؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 184؛ الزركلي، الأعلام، ج7، ص 266.

[2] ناصر خسرو، ناصر خسرو علوي القبادياني (ت، نحو 481هـ/ 1088م)، سفر نامه، تر: يحيى الخشاب، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م، (183 صفحة)، ص58-61.

[3] ناصر خسرو، سفر نامه، ص 57-66؛ البلاذري، فتوح، ص 183.

[4] هايد، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تر وتح: عز الدين فوده-أحمد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، ص 59-60.

[5] ناصر خسرو، سفر نامه، ص 58.

[6] هايد، تاريخ التجارة، ص 59.

[7] ناصر خسرو، سفر نامه، ص 58-64؛ ابن أبي عقيل، هو عبد الله بن علي بن عياض المعروف بابن أبي عقيل الصوري (ت، 450هـ/ 1058م)، وهو محدث وشيخ جليل تولى قضائها؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج31، ص 71-73.

[8] لم أقف له على ترجمة، ولكن لعله ابن فاتك الإخشيدي الذي تولى أمرة دمشق سنة 345هـ/ 956م، وبعد دخول مصر وجنوب بلاد الشام في السيادة الفاطمية دخل في طاعتهم فاستعملوه وولوه لسعة علمه ودرايته في الأحوال الشامية التي كانت مقراً لعمل أبيه؛ الصفدي، أمراء دمشق، ص 83.

1051م[1]، أمّا ولاية طرابلس فقد كان يتولاها مختار الدولة بن نزّال الكتامي، وأمام الزحف التركماني السلجوقي القادم من المشرق الإسلامي الذي كان يهدد الفاطميين والبيزنطيين على السواء، وهو أمر كان له أثره في مسار الأحداث التالية فأرخى بظلاله تخبطاً من قبل البيزنطيين والفاطميين، حيث سعى كل منهما إلى تمكين موقفه بما يحقق له القدرة على ردع ذلك الخطر التركماني القادم إليهم من الشرق، وعليه نجد تقارباً غير مسبوق بين الطرفين كان من مفرزاته تجديد للمعاهدة سالفة الذكر سنة 439هـ/ 1047م، تلاها تبادل للهدايا وطروحات لعقد اتفاق دفاع عسكري مشترك بين الطرفين سنة 447هـ/ 1055م[2]، ولكن سرعان ما تدهورت العلاقات بين الطرفين، على إثر توجه الإمبراطورة تيودورا(447– 448هـ/ 1055– 1056م) وبصورة مفردة إلى مهادنة السلاجقة ومحالفتهم لدرء خطرهم المتصاعد[3]، الأمر الذي أثار حفيظة المستنصر الفاطمي ودفعه إلى التصعيد العسكري ضد الروم البيزنطيين مع توارد الأخبار بخروج حملة بيزنطية إلى الشام[4]، مما أثر سلباً على استقرار الساحل الشامي، وحوّله مجدداً إلى ساحة للتنافس والتنازع والتنازع بين الطرفين، بلغ ذروته مع وصول حملة فاطمية بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم إلى مدينة اللاذقية، أردفها بحملة أخرى بقيادة الأمير ليث الدولة تمكنت من دخول المدينة وانتزاعها من يد البيزنطيين[5]، ومنها اتجه شمالاً نحو أنطاكية التي استعصت عليه على الرغم من آلاف المقاتلين الذين جاؤوا من نواحي الشام مدداً له، فجال في أنحائها وربوعها فغنم وسبى وتوجه منها إلى أفاميا فسيطر عليها بعد حصار فرضه على المدينة[6]، وهو ما دفع الإمبراطورة تيودورا إلى النهوض وصد الجيوش الفاطمية، فأرسلت أسطولاً مؤلفاً من ثمانين قطعة مشحونة بالمقاتلة إلى طرابلس، وصلتها سنة 447هـ/ 1056م وضربت حصاراً برياً وبحرياً عليها، دفع المستنصر الفاطمي إلى تكليف قاضي صور أبو محمد عبدالله بن عياض بانجاد طرابلس، فأرسل الأخير قوات برية وبحرية اصطدمت مع القوات البيزنطية المحاصِرة لطرابلس ونجحت في إلحاق الهزيمة بهم وفك الحصار عن المدينة، فارتدت القوات البيزنطية نحو الشمال فدخلت أنطرسوس وبعض الحصون المجاورة له، فأحرقوا ودمروا وسبوا كثيراً من الخلق، وتابعوا مسيرهم شمالاً بما غنموه مارين ببانياس وجبلة وصولاً إلى اللاذقية التي دخلوها وسيطروا عليها مجدداً بعد اصطدامهم مع مكين الدولة وهزيمتهم له وأسره سنة 450هـ/ 1058م[7]، هذا الظهور البيزنطي على الفاطميين، كان قد دفع المستنصر الفاطمي إلى إلى الميل نحو المهادنة، فأرسل وفادة من قبله إلى القسطنطينية، لكن تلك الدعوة لم تلقَ الآذان الصاغية عند البيزنطيين ولتبقى الأمور معلّقة بين الطرفين لا هي حرب معلنة ولا هي سلام واضح، إلى حين ظهور السلاجقة على مسرح الأحداث وانشغال كِلا الطرفين بهم.

---

[1] شبارو، تاريخ بيروت، ص 57؛ تنازل معز الدولة ثمال المرداسي (ت، 454هـ/ 1062م) عن حلب للخليفة المستنصر الفاطمي، الأمر الذي أقلق السلطات البيزنطية، ومن الجدير بالتنويه هنا، أن المستنصر الفاطمي أقام ثمال المرداسي والياً على بيروت وجبيل وعكا مكافئة له على تسليم حلب، الكامل، ج10، ص 12؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص 100.

[2] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 228؛ طقوش، تاريخ الفاطميين، ص 377؛ مما لا شك فيه أن ذلك التقارب سببه الخطر السلجوقي القادم من المشرق الإسلامي.

[3] Finlay, George, History of the Byzantine and Greek Empires, London, 1854, P 16- 28.

[4] سبط ابن الجوزي، يوسف بن عبد الله (ت، 654هـ/ 1256م)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: محمد الحسن–كامل الخرّاط، دمشق، الرسالة العالمية، ط1، 1434هـ/ 2013م، ج18، ص 486.

[5] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 228؛ العظيمي، محمد بن علي (ت، 556هـ/ 1161م)، تاريخ حلب، تح: إبراهيم زعرور، دمشق، 1984م، ص 343.

[6] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 218، 231.

[7] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 229.

الاستنتاجات والتوصيات:

من خلال ما سبق يمكننا ملاحظة مدى أهمية الساحل الشامي بالنسبة للفاطميين والبيزنطيين على حدٍّ سواء، فمنذ سيطرة الفاطميين على ذلك الساحل، تحولت تلك المنطقة إلى ساحة نزاع بين الطرفين بغرض السيطرة وبسط النفوذ عليها، ولكن ذلك النزاع الذي استمر قرابة القرن من الزمن لم يتجاوز حدود التجاذب الذي لم يسفر عن تفوق احد الطرفين على الأخر، كما يمكننا ملاحظة مدى تأثر ذلك الساحل بالأحداث الجارية في بلاد الشام الداخلية في كثير من الحالات، فهو جزء مهم من بلاد الشام، كما انه امتداد لبلاد الشام الداخلية، أما من الناحية الإدارية، فالجزء الذي كان تحت السلطة البيزنطية الذي يمتد من أنطرسوس نحو الشمال فقد كان يتبع أنطاكية المركز الإداري الرئيسي لبيزنطة على الساحل الشامي، أما ما عداها من المدن مثل أنطرسوس وبانياس وجبلة واللاذقية، فقد كانت تحكم من قبل حاميات بيزنطية على رأسها قائد يتبع إدارياً لعامل بيزنطة على أنطاكية وبالتالي تدور في فلكها، ولعل ذلك هو السبب وراء قلة المعطيات التاريخية عن أحوال الجزء الشمالي من الساحل الشامي الذي يقع في دائرة النفوذ البيزنطي ويتبع إدارياً لأنطاكية، أما الجزء الفاطمي من ذلك الساحل، فقد تعرض لتقلبات إدارية عدة، ففي بدايات السلطان الفاطمي على ذلك الساحل كان يترأس السلطة عليه رجل واحد ويلقب بحاكم الغرب ومركزه بيروت، الذي بدوره يعين حكاماً من قبله على الأعمال الأخرى مثل جبيل وصيدا وصور، أما طرابلس فقد كانت تتبع دمشق في بداية العصر الفاطمي على الشام، ولكن دفع بها نحو مزيد من الاستقلال الإداري فيما بعد، فجعلت ولاية مستقلة عليها عامل يعين مباشرة من قبل الخليفة الفاطمي، ولعل ذلك يعود إلى الأهمية التي كانت تتمتع بها طرابلس على الدوام، إضافة إلى رغبة الدولة الفاطمية بوجود مركز رئيس لها على الساحل الشامي يكون بمقام القاعدة المتقدمة لها والتي تكفل لها الوصول السريع لأي طارئ قد يستجد في البلاد الشامية وهو الدور الذي قامت به طرابلس في كثير من الأحيان، أما عن الأحوال العامة لذلك الساحل، فيمكننا ملاحظة مدى الاستقرار الذي كان يتمتع به الجزء الشمالي من الساحل الشامي تحت الإدارة البيزنطية، بدليل عدم ورود أي خبر عن ثورات أو اضطرابات قامت ضد السلطات البيزنطية فيه، ما عدا عصيان واحد قام به عامل أنطاكية على الإمبراطور البيزنطي، ولكنه سرعان ما تم إخماد حركته والقضاء على ثورته، أما عن الأحوال العمرانية والاقتصادية، فمن الواضح أن ذلك كان مقتصراً على أنطاكية دون سواها، فأنطاكية كانت مركزاً حضارياً وتجارياً على الدوام وبالتالي حافظت على ذلك في ظل السيطرة البيزنطية عليها، أما سائر المراكز الساحلية الأخرى فمن المرجح أنها لم تشهد نشاطاً تجارياً ذا أهمية إلا في حدود الحاجيات الرئيسة، وجلّ النشاط الاقتصادي كان مقتصراً على الزراعة، أما عن العمران فقد كان مقتصراً على المنشآت العسكرية و تعزيز الاستحكامات الدفاعية لمنع أي تقدم فاطمي، أما الجزء الجنوبي من الساحل الذي كان تحت السيادة الفاطمية فيمكننا ملاحظة نهضة حضارية واقتصادية قوامها مدنٌ منظمة وأسواق غنية وموانئ تجارية نشطة خاصة في أوقات المهادنة والمسالمة بين الفاطميين والبيزنطيين، ويعزز كل ذلك حالة من التعايش الحضاري الرائع بين المكونات المختلفة لذلك الساحل.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. ابن الأثير، علي بن محمد (ت، 630هـ/ 1232م)، *الكامل في التاريخ*، تح: محمد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1407هـ/ 1987م.

2. ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت، بعد 736هـ/ 1336م)، *كنز الدرر وجامع الغرر*، تح: صلاح الدين المنجد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، 1380هـ/ 1961م ج6(*الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية*، 677

3. البلاذري، أحمد بن يحيى (ت، 279هـ/ 892م)، *فتوح البلدان*، تح: عبد الله الطباع-عمر الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، 1407هـ/ 1987م، 768.

4. ابن تغري بردي، يوسف الأتابكي (ت، 874هـ/ 1469م)، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، تح: محمد عبد القادر حاتم، القاهرة، دار الكتب، 1383هـ/ 1963م.

5. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت، 597هـ/ 1201م)، *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، تح: محمد ومصطفى عبد القادر عطا–نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1412هـ/ 1992م.

6. الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت، 626هـ/ 1229م)، معجم *البلدان*، بيروت، دار صادر، ط2، 1995م.

7. ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت، 367هـ/ 977م)، *صورة الأرض*، بيروت، مكتبة الحياة، 1992م.

8. ابن خلكان، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت، 681هـ/ 1282م)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1398هـ/ 1978م.

9. سبط ابن الجوزي، يوسف بن عبد الله (ت، 654هـ/ 1256م)، *مرآة الزمان في تواريخ الأعيان*، تح: محمد الحسن-كامل الخرّاط، دمشق، الرسالة العالمية، ط1، 1434هـ/ 2013م،

10. أبو شجاع، محمد بن الحسين (ت،389هـ/ 999م)، *ذيل تجارب الأمم*، تح، هـ–ف–أمدروز، مصر، شركة التمدن الصناعية، 1334هـ/ 1916م.

11. الصفدي، خليل بن أيبك (ت، 764هـ/1363م)، *الوافي بالوفيات*، تح: أحمد الأرنأووط–تركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- *أمراء دمشق في الإسلام*، دمشق، المجمع العلمي العربي، ط1، 1955م

12. ابن العديم، عمر بن أحمد (ت، 660هـ/1262م)، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، تح: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ/ 1996م.
- *بغية الطلب من تاريخ حلب*، تح: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، 1988م.

13. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت، 571هـ/ 1175م)، *تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها*، تح: عمر بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر، 1415هـ/ 1995م.

14. العظيمي، محمد بن علي (ت، 556هـ/ 1161م)، *تاريخ حلب*، تح: إبراهيم زعرور، دمشق، 1984م.

15. أبو الفداء، إسماعيل بن محمد بن عمر (ت، 732هـ/ 1332م)، *المختصر في أخبار البشر*، القاهرة، مكتبة المتنبي، د.ت.

16. ابن القلانسي، حمزة بن أسد (ت، 555هـ/ 1160م)، *ذيل تاريخ دمشق*، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، 1908م.

17. المقريزي، أحمد بن علي (ت، 845هـ/ 1441م)، *اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا*، تح: محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1416هـ/ 1996م.

18. ناصر خسرو، ناصر خسرو علوي القبادياني (ت، نحو 481هـ/ 1088م)، *سفر نامه*، تر: يحيى الخشاب، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م، 183.

19. الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت، 458هـ/ 1067م)، *تاريخ الأنطاكي (صلة تاريخ أوتيخا)*، تح: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس–لبنان، جروس برس، 1990م، 582.

20. النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت، 733هـ/ 1333م)، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تح: نجيب فواز–حكمت فواز، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/ 2004م.

ثانياً: المراجع: أولاً: العربية:

1. حسن، إبراهيم حسن، *الفاطميون في مصر*، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1932م، 367 صفحة.

2. حمود، سوزي، *لبنان في العصر الوسيط*، بيروت، دار النهضة، ط2، 1431هـ/ 2010م، 143 صفحة.

3. الحياري، مصطفى علي مصطفى، *الإمارة الطائية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين*، بيروت، الجامعة الأميركية، 1969م، 223 صفحة.

4. الزركلي، خير *الدين، الأعلام*، بيروت، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، ج2، 341/ ج7، 352 صفحة.

5. سالم، عبد العزيز، *دراسة في تاريخ مدينة صيدا*، بيروت، جامعة بيروت العربية، 1970م، 218 صفحة.
- *طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي*، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1966م، 566 صفحة.
6. سرور، جمال، *تاريخ الدولة الفاطمية*، القاهرة، دار الفكر العربي، 1995م، 426 صفحة.

7. شبارو، عصام محمد، *تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين*، بيروت، دار مصباح الفكر، 1987م، 244 صفحة.

8. الشدياق، طنوس بن يوسف، *أخبار الأعيان في جبل لبنان*، بيروت، مكتبة العرفان، 1954م، ج2، 346 صفحة.

9. طقوش، محمد سهيل، *تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام*، بيروت، دار النفائس، ط2، 1428هـ/ 2007م، 560 صفحة.

10. عدوان، أحمد، *الدولة الحمدانية*، ليبيا، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع، ط1، 1981م، 351 صفحة.

11. العريني، السيّد الباز، *الدولة البيزنطية*، بيروت، دار النهضة، 1385هـ/ 1965م، 931 صفحة.

12. عوض، محمد مؤنس، *الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب*، عين للدراسات، جامعة عين شمس، ط1، 1999م، 446 صفحة.

13. اليوسف، عبد القادر، *الإمبراطورية البيزنطية*، بيروت، المكتبة العصرية، 1984م، 217 صفحة.

ثانياً: المترجمة إلى العربية:

1. ماسبيرو، غاستون، *تاريخ المشرق*، تر: أحمد زكي، القاهرة، مؤسسة هنداوي، 2012م، 197 صفحة.

2. هايد، ف، *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى*، تر وتح: عز الدين فوده-أحمد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، 263 صفحة.

ثالثاً: الأجنبية:

1. DOWENY, G LANVILL, *Gazian The early sixth Century*, Oklahoma, press 1963, 703pags.

2. FINLAY, GEORGE, *History of the Byzantine and Greek Empires*, London, 1854.486pags.

3. TREADGOLD, WARREN, *A History of the Byzantine State and society*, Stanford, 1020pages.